شهريات

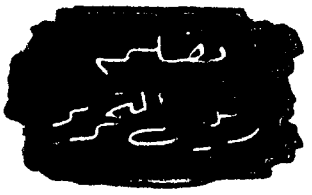

١ ـ ساغان الجديدة

من مطالعات هذا الشهر رواية فرنسية ودراسة عربية .

اما الرواية فهي آخر انتاج الكاتبة الفرنسية المعروفة فرانسوازساغان ، وهو بعنوان « السرير المخرّب» **Le lit défait**

وقد قرأت معظم روايات ساغان (١) ، واعتقد ان هذه الاخيرة اجملها واعمقها وادلّها على موهبة الكاتبة الفرنسية الفريدة .

والرواية قصة حب طاغ يستولي على كاتب مسرحي في الخامسة والثلاثين ، يدعى ادوار ماليفراس ، لممثلة تدعى بياتريس فالمون أكبر منه سنا كانت قد صدّته منذ خمسة اعوام ، ولكنها الآن تقبل به ولو قبولا لا مباليا ، بعد ان بدأ نجمه يلمع . ومع صعود الكاتب المسرحي ونجاحه وتألق شهرته ، فهو يظل يحتفظ بالرعشة وبشكوك المراهقة : لا قيمة في عالمه الا لبياتريس !

ولكن ادوار ، في غمرة استسلامه لعاطفته الطاغية، لن يلبث ان يلقي على بياتريس شبكة اخطر من شبكة الحسد (مثلا) .وحول هذين الوجهين المركزيين الآتيين من عالم المسرح والسينما ، تنبثق وتختفي كائنات ترصدها المؤلفة وتأخذها في صميمية حقيقتها .

ان فرانسواز ساغان تصوّر في روايتها خفايا عاطفة تتلبس شكل صراع ثنائي يزيده تعقيدا ان كلا من بطليه محترف خيال : مؤلف وممثلة .

ولا مفرّ للقارىء من ان يحس بأن المؤلفة تتأمل ـ مبهورة ـ في صورة بياتريس صورة لها هي نفسها تختلط فيها الروائية وبطلتها تارة ، وتارة اخرى تتجابهان .

انه اذن الصراع الابدي بين الرجل والمرأة . والمرأة فيه ، بصورة خاصة ، تعمد الى كل وسيلة لتسجيل الانتصار ، بما في ذلك سماحها لعشاق سابقين ان يحاولوا من جديد الانتصار عليها . واما الرجل فيمضي، خافض الرأس ، في هذه « المهمة المستحيلة » ، وحولهما تقف باريس كلها لتحكم المباراة ، ولتزيفها ايضا ،كما تقول غبرييل رولين في جريدة « لوموند » (عدد ٨ نيسان الماضي) .

ويتحدث روبير كانترز ، ناقد « الفيغارو » المعروف (عدد ٨ نيسان الماضي ايضا) عن رواية « السرير المخرّب » ، فيصفها بانها اكثر روايات ساغان كلاسيكية: « وحدة المكان : سرير ، وحدة العمل : فعل الحب . شخصيتان رئيسيتان : ادوار وبياتريس » واكثر رواياتها رومانتيكية لانها مكرّسة للوصف ولقصة حب طاغية على طريقة الفريد دو موسيه .

ويصف كانترز بطلة الرواية بياتريس بانها متحررة في ميدان الحب ،وهي تقضم الرجل كلما اشتهته كما تقضم ثمرة ، وتلفظه اذ تملّه . اتكون انانية ام لا مبالية؟ انها اولا جميلة ، مشتهاة ، تلقائية ، صريحة الى ابعد حدّ، وطبيعية في بحثها عن اللذة : فهي لا تكذب ، ولا تخدع . وادوار يحبها ، وهي له في السرير ، ولكنه يتعذّب لان الحب شيء آخر ، حاجة الى اليقين والاخلاص والسعادة . وتلك هي زبدة الرواية وقوام الصراع :الصراع بين تلك التي تبحث عن اللذة ، وذلك الذي يبحث عن السعادة .

ويعبّر الناقد الفرنسي بعد ذلك عن اعجابه بكتابة ساغان ، ويصفها بأنها روائية مستقبلية .

---

(١) كانت دار الاداب قد ترجمت ونشرت روايتها الثانية « هل تحبين برامس » لدى صدورها .

عدد اليوبيل الفضي

تستعد «الآداب» لاصدار عددها الممتاز المنتظر بمناسبة بلوغها سنتها الخامسة والعشرين . وهي لا تزال تنتظر ان يوافيها اصدقاؤها الذين عهدت اليهم في كلية البحوث والدراسات والشهادات بما طلب منهم ، حتى لا يتأخر صدور عدد اليوبيل الفضي عن الوعد المقرّر له ـ اواخر فصل الصيف .

«التحرير»

والحق ان الذي اعجبني شخصيا في رواية « السرير المخرّب » دقة تحليلها لذبذبات النفس البشرية وتقلباتها والغوص الى اعماق القلب وتناقضات الانسان حتى لكأن المؤلفة عالمة تحليل نفساني ، تعكف على قلب بياتريس ، اي على قلبها هي بالذات ، وتتفحصه ، وتسائله ، وتحنو عليه مرة ، وتارة تقسو . وبالرغم من ان مشاهد فعل الحب على السرير المخرّب دائما ، اي السرير الذي لا يرتّب ابدا ، كثيرة متعددة ، فانها لا توحي بالفجور ، بل تكاد توحي بالحشمة ، لان غاية المؤلفة انما هي ، عبر هذا كله ، نبضات القلب الانساني في فرحه وفي عذابه ، في سعادته وفي شقائه .

وانه لجدير بالقراء العرب ان يطلعوا على هذه الرواية الفريدة » (١) .

* * *

٢ ـ حول « الحي اللاتيني »

واما الدراسة الادبية التي طالعتها هذا الشهر ، فهي كتاب للصديق الاستاذ جورج طرابيشي عنوانه « شرق وغرب ، انوثة ورجولة » (٢) .

وقد تناول المؤلف ، في فصل طويل ، روايتي « الحي اللاتيني » ضمن عدة اعمال روائية وقصصية لكتّاب آخرين ، موضحا انه « ليس من قبيل المصادفة ان تكون جميع الروايات العربية التي عالجت مشكلة العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب قد طرحت هذه المشكلة من منظور جنسي » . واضاف قائلا : « فعملية المثاقفة الحضارية ، باقتراضها وجود طرفين موجب وسالب ، فاعل ومنفعل ، تبعث لدى المثقف الشرقي شعورا مرهقا بالخصاء الفكري » .

الام يرمي كتاب جورج طرابيشي اذن ؟ « الى تفكيك اوالية لعبة المثقف الشرقي الذي يعكس معادلة عنّته الثقافية ، وينصب نفسه ذكرا يمثل فحولة الشرق في مواجهة الغرب المصوّر على انه انثى » .

هذا ما يقوله المؤلف في التعريف بكتابه .

ويعنيني هنا ان اقصر كلامي على دراسته لـ « الحي اللاتيني » ، وان كان الحكم على منهجه هنا ، ينسحب كذلك على سائر الاعمال التي تناولها .

وابدأ المناقشة بايراد الخاتمة التي انهى بها المؤلف دراسته ، فهو يقول :

« من الممكن ، ختاما ، ان يقال اننا ظلمنا بطل « الحي اللاتيني » لاننا حاكمناه بموجب لا وعيه اكثر مما حاكمناه بموجب وعيه . وهذا صحيح . ولكن لنا بدورنا اسبابنا المخففة . فبعض الاعمال الادبية ، ومنها « الحي اللاتيني » على ما خيّل الينا ، دالة بما لا تقوله اكثر منها بما تقوله ، بما تضمره اكثر منها بما تفصح عنه . ووظيفة النقد ، في مثل هذه الاحوال ، ان يستنطق المصموت عنه لا المجهور به ، وان يتعامل مع منطق الرواية اكثر منه مع منطوقها . ولم تكن مهمتنا ، اذ اخترنا هذا السبيل ، بالسهلة ، فنحن لم ندخل من الابواب المشرعة ، ولا حتى من الباب الضيق ، وانما فتشنا عن سراديب ومسالك سرية . ولعلنا ، حين لم نجدها ، شققناها ، ولعل مجهودنا ، لهذا السبب ، لم يكن يخلو من قدر من الاعتناف والاقتسار . ولعل في اقرارنا هذا بعض انصاف لبطل ربما اجحفنا بحقه ، في الوقت الذي اجمع فيه غيرنا من النقاد على اعتباره نموذجا ايجابيا » .

ان عبارة الكاتب الاخيرة ذات دلالة واضحة . فهي توحي ، من غير شك ، بأن الذي يحركه هو ان «يجمع» الدارسون على اعتبار البطل « نموذجا ايجابيا » ، فاذا به يتجند « للتفرد » باثبات عكس ذلك . . . ولكنه ، بعد ان خاض هذه المعركة ، ساوره شعور بالذنب بانه ربما ظلم بطل « الحي اللاتيني » حين اختار ان يحلّل ما تضمره الرواية ، لا ما تفصح عنه . .

ونحن من المؤمنين بأن من حق الدارس ، بل ربما كان من واجبه ، ان يتعمّق تحليل العمل الفني ويذهب في ذلك شتى المذاهب . ولكن هناك شرطا لا بدّ منه ، هو

---

(١) ستصدر قريبا عن دار الآداب .

(٢) منشورات دار الطليعة ، بيروت .

الا يعتسف الدارس ولا يقتسر التفسيرات اقتسارا ... والاستاذ طرابيشي يعترف بان مجهوده « لم يكن يخلو من قدر من الاعتناف والاقتسار » ، لانه فتش عن « سراديب ومسالك سرية » ولم يدخل من الابواب المشرعة ، ولاحتى من الباب الضيق .. ولكن الخطير في منهجه ، وهو ما نعتقد انه اوقعه في التعسف والاقتسار ، انه لا يتورع، حين لا يجد السراديب والمسالك ، من ان « يشق » له سراديب ومسالك .. فلماذا تراه يجهد نفسه في شق مثل هذه السراديب ، ويترك الابواب العريضة او الابواب الضيقة ؟

والحق انه « يختار » من داخل هذه الابواب المشرعة بعض ما يفيده في مشروعه ، وهو المظاهر السلبية في تصرفات البطل ، فيما هو يرفض المظاهر الايجابية التي يتطور اليها سلوك البطل عبر تقلبات الاحداث ،وهذه « الانتقائية » تفسد جانبا من جوانب منهجية الكاتب . هذا فضلا عن ان ايجابية بطل من الابطال لا تقتضي بالضرورة ان يكون في جميع تصرفاته وحركاته وسكناته « ايجابيا » .. فالحقيقة أن الايجابية بذاتها لا يمكن ان تتجسد الا انتصارا على سلبية معينة ، والا كفت عن ان تكون « بشرية » : ولا نقول « انسانية » ، انها نتيجة صراع مع السلبية ،تتغلب فيه عندمرحلة من مراحل التطور والسيرورة . وجميع النقاد والدارسين الذين تناولوا « الحي اللاتيني » ادركوا ان ايجابية بطله انما جاءت نتيجة صراعاته مع المجتمع ومع نفسه عبر اشكال كثيرة من السلبيات التي يفرضها عليه وسطه الاجتماعي وتقاليده ورواسبه .

وبعد ، فان آفة دراسة صديقنا الاستاذ جورج طرابيشي هي انه يتعامل مع الرواية بنية مسبقة ، هي نظرية معينة يريد بأي ثمن تطبيقها على الاثر الذي يواجهه . فهو لكي يخالف الاجماع اولا ، يخترع حكما تعسفيا يعينه على ادراج بطل « الحي اللاتيني » في النظرية العامة التي يريد ان يطبقها على الآثار التي تناولت مشكلة العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب .. وملخص رأيه ان بطل الرواية ، بسبب ما يسميه الكاتب « خصاءه الفكري » او « عنته الثقافية » يضع منذ البدء « مشروعا كبيرا للانتقام » من حبيبته الاجنبية !

ويروح الكاتب يبحث في الرواية ويدقق عما يبرر له هذا الحكم في مسلك البطل وتصرفاته ،حتى اذا اعجزه ذلك ، لم يجد الا ان « يشق » سراديب في لاوعي البطل ليلصق به ، كيفما كان الحال ، هذه التهمة ، تهمة اعداد مشروع كبير للانتقام من انوثة الغرب ...

وليعذرنا الاستاذ جورج اذا قلنا ان ذلك قد ادى به الى هذا « التخبط » الذي يتجلى في كثير من احكامه وتحليلاته ..

١ ــ منذ البدء ، لا يريد المؤلف او لا يحاول ان « يفهم » بطل الرواية او « يتفهمه » بل يصر على ان يعامله بـ « عدوانية » شديدة .. فهو يحكم على امساكه بالفتاة في السينما بانه « فعل اغتصاب حقيقي ، وانجزئي » (ص ٧٥) وعلى انتظاره للفتاة في اليوم التالي بانه « منظر يغدو باعثا على الرثاء » (ص ٧٥) وعلى نقصه في التجربة الجنسية (المتجلي بسرعة القذف) بانه « ضرب من العنة » . ولانه اسرع في العمل الجنسي مع مرغريت فقد « فضحته تجربته معها كرجل » ، ولانه لم يكتشف ان ليليان خدعته حين عزت لنفسها قصيدة لبريفير ، فقد « فضحته تجربته معها كمثقف » (ص ٨١) .

ونعتقد ان استعمال هذه النعوت والاوصاف لا يدل على موضوعية يفترض بالدارس ان يتحلى بها اذا شاء ان يكون متجردا في دراسته واحكامه ــ فضلا عن انها تتناقض والحياد الذي وحده يتيح الفهم الحقيقي للابطال والمواقف .

٢ ــ بالرغم مما يظهره الاستاذ جورج من معلومات تدل على اطلاع واسع ، فان عددا من تصرفات البطل تفوته بسيكولوجيتها الحقيقية . (ام انه يتجاهل هذه البسيكولوجية لان فهم بواعثها يتعارض مع مخططه المبيت ؟) فبدلا من ان يفسر نقمة البطل واحباطه بعد تجارب معينة على ان باعثهما نوع من التعزي ومكاذبة النفس والسخرية من الذات ، يهاجم البطل بانه متخلف ورجعي ، وبان ايديولوجيته التقدمية ليست الا ظاهرية (ص ٨٢) .

والحقيقة ان الكاتب يجد من واجبه دائما ان يدين ردود الفعل عند البطل ، ويطالبه بـ « المحاكمة العقلية الواعية» ، كأن المطلوب من الروائي ان لا يختار ابطالا يتصرفون بردود الفعل ، او كأن البطل « الايجابي »في نظره يجب ان يبتعد عن ردود الفعل .. ونحن لا نفهم ان يعتمد الكاتب هذا المقياس وهو يريد لبحثه ان يكون نفسيا ــ اجتماعيا !

والواقع أن الاستاذ طرابيشي يهدر جهودا مضنية يبذلها ليثبت ان البطل متناقض او متوهم او مخادع نفسه .. وهو ما يعترف به البطل نفسه لنفسه في كثير من المواقف .. على ان اعجب ما في موقف الكاتب هو انه يرفض ان يتطور البطل ، وان يحاول ان يتخلى تدريجيا عن « شرقيته » . كل ذلك حتى لا تتخلخل « نظريته »التي تريد ان تثبت ان كل هموم البطل تتجمع في ان ينتقم من حبيبته ! فاذا قرر البطل ، بعد معاناة نفسية وخلقية ،ان يغلب نزعة التحرر على التقاليد الشرقية ، وان يتحمل مسؤوليته التي تخلى عنها في مرحلة من مراحل

حياته ، فان الكاتب يصرّ على ان ذلك غير طبيعي ، وانه زائف وانه غير منطقي وانه مصطنع ، من غير ان يداخله اي شك في ان نظريته مخطئة من اساسها ، وان مشروع الانتقام غير وارد على الاطلاق ، لا في وعي البطل ولا في لاوعيه ! ذلك ان مجموع سلوكه مع البطلة الاجنبية لا يمكن ان يوحي بذلك من قريب او بعيد ..

٣ ـ ان الدارس لم يرد ان يدخل الباب الواسع ، او الباب الضيق ، الذي يكشف عن حقيقة واضحة : هي ان البطل كان في كل تصرفاته الاولى ، قبل ان يضيع آثار جانين ، يسعى وراء الحرية ويريد الاستمتاع بثمارها ، من غير ان يتحمّل اية مسؤولية ، وإن ذلك كان الى حد بعيد بفعل الضغوط الاجتماعية والتقاليد التي يحمل رواسبها . على انه قرر بعد ذلك ان ينفض عنه هذه التقاليد ، وان يتصدى لها ، وان يضطلع بمسؤوليته ..

غير ان صديقنا الاستاذ جورج لا يقبل هذا التطور في النفسية والسلوك ، ويصف تغيّر موقف البطل بانه كفّارة ، وبأن هذه الكفّارة مسرحية . كما انه يرفض ان يفهم موقف جانين التي ظلّت تحب رجلها العربي . لان « المنطق » الذي جعلها ترفض مسلك هنري ، يقضي عليها حتما بان ترفض مسلك العربي .. كان المواقف والطبائع البشرية يجب ان تقوم كلها على المنطق .. ليس ثمة ما يمنع كائنا بشريا رفض موقفا معينا ان يعود في مرحلة اخرى من حياته فيستسلم لهذا الموقف تحت ضغط الظروف والاوضاع . افلا تكون ظروف الاحباط واليأس والجوع كافية لتجعل جانين تسقط حيث لم تسقط في ظروف مختلفة ؟

ان مخطط الاستاذ طرابيشي في حصر سلوك بطل الرواية بمشروع الانتقام تؤطره جبرية صارمة تحول دون ان يفهم او يتفهم اية ذبذبة بشرية في نفسية البطل.

والحق ان الكاتب كان يشك احيانا في ان يكون مشروع الانتقام الذي ركّبه على البطل مقنعا ، فكان يشير مرة بعد مرة الى ان البطل لا يتحدث اطلاقا عن الانتقام ، لان هذا الانتقام كامن في لا وعيه فقط .. بينما يقول «ان الاستعمار ووعيه غير غائبين » عن الرواية (ص ١١٠) فكيف يبرر الكاتب ان يكون البطل واعيا للاستعمار وغير واع لمشروع الانتقام ؟ متى يعي البطل ومتى لا يعي؟ وما هو المقياس الذي يعتمده الدارس ؟

٤ ـ تعليقا على قول بطل آخر في الرواية : « ان حاجتي الى المرأة شديدة » يقول الكاتب :« المرأة اذن حاجة » (ص١٠٦) .

ومن الواضح ان هنا تشويها لفوياخطيرا . فحاجة رجل الى امرأة لا يعني لفويا ولا اجتماعيا ان تكون هذه المرأة نفسها حاجة ، كما ان حاجة الرجل للمرأة لا ينفي اطلاقا ان تكون للمرأة حاجة مماثلة الى الرجل ، بخلاف ما يقصد اليه الهامش الطويل الذي بناه الكاتب على هذه الغلطة اللفوية التي ارتكبها في سياق بحثه عن مبررات اثبات عنّة الشرقي الثقافية !

٥ ـ يقول الاستاذ طرابيشي :

« في سهرة الوداع ، قبل سفر « الحبيب العربي » لقضاء اجازة الصيف في بيروت ، يلتقي بطلا « الحي اللاتيني » ، وهما في طريقهما الى مطعم الكوبول ، يلتقيان ، بدون اي مبرر فني من داخل منطق الرواية بـ « فتاة رصيف » ،وذلك تجسيدا ، بتدخل خارجي عن مسار الرواية ، لمستقبل « الفتاة الضائعة » (ص ٩٦) .

وقد كنت اتمنّى ان يشرح الكاتب مقاييس المبررات الفنية من داخل العمل الفني ، ومقاييس التدخلات الخارجية .. أليس هناك بعض الشطط في ان يسمح ناقد لنفسه بوضع منطق لرواية ، ولا يسمح بذلك لمؤلف هذه الرواية ومصمّمها ؟

***

وبعد ، فنعتقد ان النقد الموضوعي المتجرد يتطلّب من صاحبه ان يدخل حرم العمل الفني الذي يواجهه من غير افكار مسبّقة ومخططات مبيّتة وقواعد مقرّرة يحاول تطبيقها على الاثر ، فاذا لم تنطبق ، حكم بأن الاثر بذاته يشكو الخلل او النقص . ان هذا في الحق منهج مشوّه ومشوِّه ، وكنّا نربأ بالاستاذ جورج طرابيشي ، الذي نحترم عمله وجهده ، ان يعمد اليه .

سهيل ادريس